أسلوبية العُنوان في رواية سفر السّالكين لمحمد مفلاح.

: Stylistics of the title in the novel of « The Travel of The Walkers » of Muhammad Maflah .

الطالب: عمر عزايز.

تحت إشراف: د. طاطة بن قرماز.

جامعة الشلف

الملخّص:

يتطلّع هذا البحث للوقوف عند مختلف التّقنيات التّعبيرية الحداثية والعناصر الفنّية المُكوّنة للمنجز السّردي على وجه العموم، وفي المشروع السّردي للرّوائي الجزائري محمد مفلاح في روايته سفر السّالكين على وجه الخصوص، وذلك باستثمار المنهج الأسلوبي البنيوي؛ لأنه من المناهج النّسقية الفعّالة الّتي من خلالها يمكن النفاذ إلى جوهر النّص ومكنوناته.

الكلمات المفتاحية: الخطاب الرّوائي، المنهج الأسلوبي البنيوي، أسلوبية العُنوان، محمد مفلاح، التّقنيات التّعبيرية.

Abstract :

This research seeks to identify the various modernist expressionist techniques and the artistic elements that make up the narration of narration in general and in the narrative project of the Algerian novelist Mohamed Moufallah in hisnovel « The Travel of the walkers in particular, by investing in the structural méthodique approach because it is an effective methodical approach through which The essence of the text and its meanings.

Keywords: Novelistic discourse, Structural methodological approach, stylictic of the title, Mohamed Mafallah, Expression techniques.

نصُّ المداخلة:

ارتأينا قبل تحليل رواية سفر السّالكين لمحمد مفلاح تحليلاً أسلوبياً تقديمَ مهاد نظري عن الأسلوبية قصد تبصير القارئ بهذا المنهج النّقدي الحداثي المُعتزم تطبيقه على التّجربة السّردية المفلاحية.

1/ الجانب النّظري:

أ.الأسلوبية في الدّراسات الغربية:

تطّرق العديد من الباحثين في العصر الحديث لمفهوم الأسلوبية في مسعىً منهم إلى تأصيلها في الدّراسات النّقدية الحديثة تنظيراً وتطبيقاً، وقد اتّسمت تعاريف الأسلوبية بطابع لساني صرف، ولا غرو في ذلك؛ إذ أنّ شارل بالي(Charles Bally) وهو أحد تلامذة دوسوسير أوّل من طوّر معالمها في كتابه (Traite de stylistique français)مصنّف الأسلوبية الفرنسية، جاعلاً في ذلك مُرتكزه على الأسلوبية النّفسية والوجدانية لبناء أسلوبيةٍ ذات طابع علمي محض، ولتحقيق هذا الغرض قدّم للأسلوبية تعريفاً هو كالآتي:" تدرس الأسلوبية وقائع التّعبير اللّغوي من ناحية مضامينها الوجدانية، أي أنّها تدرس تعبير وقائع الحساسية المعبّر عنها لغوياً، كما تدرس فعل الوقائع اللّغوية على الحساسية"[1].

ويعتمد جاكبسون في تحديده لماهية الأسلوبية على نظام الخُطاطة التّواصلية مؤكّداً على هيمنة وسيطرة الوظيفة الشّعرية في الخطابات الفنّية، وبذلك فالأسلوبية عنده" بحث عمّا يتميّز به الكلام الفنّي من بقية مُستويات الخطاب، ومن سائر أصناف الفنون الإنسانية ثانياً"[2]، فغاية الأسلوبية إذن الاشتغال على الخصائص الفنّية الجمالية للخطابات الأدبية.

ب.الأسلوبية في الدّراسات العربية:

مثّل النّاقد العربي التُّونسي عبد السلام المسدي مرجعاً مهمّا في مجال الدّراسات الأسلوبية العربية لكلّ من جاء بعده، وقد لقي المُصطلح الّذي وضعه المسدي رواجاً وذُيوعاً في وسط السّاحة

النّقدية العربية " فهو دالٌ مركّب جذره أسلوب "style" ولاحقته "ية " "ique " فالشّق الأوّل مدلوله إنساني ذاتي وبالتّالي نسبي واللّاحقة تختصُّ بالبعد العلماني أي الموضوعي"[3]، فمن الواضح أنّ النّاقد عبد السلام المسدي يهدف إلى إزالة هاجس الضّبابية عن مفهوم الأسلوبية نتيجة تعسّر فهم الدّارسين لها خصوصاً في ظلّ انتشار الاضطراب المعرفي والخلط المنهجي بين مصطلح الأسلوب والأسلوبية؛ إذ كثيراً ما نُعتت الأسلوبية بالأسلوب على الرّغم ما بين المُصطلحين من بونٍ شاسعٍ.

ويرى منذر عيّاشي في الأسلوبية ذلك " العلم الّذي يدرس اللُغة ضمن نظام الخطاب المُرتكز على مبدأ هوية الأجناس، ولذا كان موضوع هذا العلم متعدّد المُستويات مُختلف المشارب والاهتمامات مُتنوّع الأهداف والاتّجاهات"[4]، وبهذا تنفرد الأسلوبية بميزةٍ خاصّة تتمثّل في شموليتها وانفتاحها على جميع الأجناس الأدبية في مُحاولةٍ منها إلى الوصول للقيم الجمالية لأيّ خطاب كان موظّفةً في ذلك جملةً من الآليات والأدوات الخادمة للخطاب المُتناول بالدّراسة والتّحليل.

وتأسيساً على مقولة منذر عيّاشي السّالفة الذّكر تتنزّل هذه المداخلة في إطار تطبيق المنهج الأسلوبي البنيوي على النّص السّردي لصاحبه محمد مفلاح في روايته سفر السّالكين، نظراً لاتّساع نطاق هذا المنهج من جهةٍ، وقابليته وفاعليته في تحليل النُّصوص السّردية وتفتيت بناها تفتيتاً ذُرّياً من جهةٍ أُخرى، ولعلّ هذه الدّراسة تعدُّ من الدّراسات القلائل في هذا الميدان؛ إذ كثيراً ما ارتكن الدّارسون في تحليلاتهم للنُّصوص السّردية إلى المنهج السّيميائي، أوالمنهج اللّساني،أو المنهج التّفكيكي... غاضّين الطّرف عن المنهج الأسلوبي، ومردّ هذا العزوف عن تحليل الأعمال السّردية تحليلاً أسلوبياً يكمن في نظرنا إلى الاعتياص المنهجي والإجرائي في مثل هكّذا دراسات، وعليه نتقدّم بهذا البحث حتّى نُبصّر الباحثين بآليات هذا المنهج وأهميته في معالجة النصوص السّردية عامّةً والرّوائية منها خاصّة.

2/ الجانب التّطبيقي:

ملخّص عن رواية سفر السّالكين:هذه الرّواية لصاحبها محمد مفلاح تقع في حدود 107 صفحات من الحجم الصّغير، وهي تتوزّع على ثمانية فصول، وتتحدّث الرّواية عن حياة سبعة شيوخ أُحيلوا إلى التّقاعد، وقد جمعهم مقعد الغرانيت، الّذي صار فيما بعد شاهداً على أحوالهم

وحاملاً لذكرياتهم وماضيهم، وعلى الرّغم من اجتماعهم إلّا أنّ هؤلاء الشّيوخ تختلف طبائعهم وتوجّهاتهم، فكلّ واحدٍ فيهم كان يبحث عن أملٍ جديدٍ، إمّا في تجديد حياته مع امرأةٍ، أو الابتعاد عن رذائل الحياة.

أهداف الدّراسة:

يحاول هذا البحث دراسة العتبات النّصية أو المرفقات النّصية المُحيطة بنص رواية سفر السّالكين لمحمد مفلاح من منظور أسلوبي بنيوي، وقد اخترنا العتبات النّصية كموضوع للدّراسة وبالتّحديد العنوان في العمل الرّوائي، نظراً لأهميته وباقي العتبات النّصية في قراءة النّص والكشف عن أبعاده الجمالية، فالعتبات النّصية على اختلافها:(العناوين الأساسية والفرعية،اسم المؤلّف،التّمهيد، المقدّمة، ولوحة الغلاف) هي مادّة خصبة وثريّة للمُدارسة والمُكاشفة وفتح باب التّأويلات واقتحام النّص من لدُن الذّات المتلقية، ولأنّ قيمة النّص لا تقتصر على متنه، بل إلى كلّ ما يحدّد بناءه وتشكيله سنخصّص هذه الدّراسة لهذا الجانب المهمّ في تحليل الأعمال الأدبية أي(العتبات النّصية)، وكما سبقت الإشارة " قراءة أسلوبية في العنوان"، حتّى نعطي لهذه الدّراسة نصيبها من التّحليل والمُدارسة الكبيرين.

وممّا لا شكّ فيه أنّ قراءة العنوان وفهم دلالاته وأبعاده الأسلوبية الفنّية تستوجب من محلّلها الأخذ بعين الاعتبار بباقي العتبات النّصية المُحيطة بعنوان الرّواية من مثل: الرُّسومات والأشكال والألوان وطبيعة الخط وغيرها من القضايا الّتي لها صلة مباشرة في مُكاشفة عنوان الرّواية، وإذا كان الحال كذلك فإنّه من الأهمية بمكان أن نعرّج على محتويات غلاف الرّواية المُتناوَلة بالبحث والدّراسة، وفيما يلي وصفٌ تفصيلي لما احتوته رواية " سفر السّالكين" من عتبات نصّية، مع إثباتٍ لصورة الغلاف أو الواجهة.

1.وصف لغلاف رواية سفر السّالكين:

أ. أهمية الغلاف في الأعمال الأدبية :

يُعدُّ الغلاف في دراسة أيّ عملٍ أدبيٍ محطّةً مهمّةً تستثير الدّارس إليها وتجذبه إليها جذباً، " فالغلاف هو عنوان الرّسالة وليس قبراً بارداً "[5]، أو مجرّد تجليد لوريقات العمل الأدبي، ومن ثمّ

توجّب على كلّ مُحلّلٍ الوقوف عنده؛ ذلك أنّه لا يخفى على أحدنا ما لأسلوبية الصورة أو الواجهة من التّكثيفات الدّلالية والأبعاد الجمالية الّتي لا تقلّ أهميةً عن فحوى العمل السّردي برمّته، وهو ما يجعل من منطلق كل دراسة تحليلية لأيّ نصوص أدبية واجهتها الّتي تقدّمتها ووقعت أنظارنا أوّل ما وقعت عليها.

وإنّ ما يمنح للغلاف جماله ويزيد من افتتان الدّارس به هو طريقة تصميمه المُميّزة، وما استُعمل فيه من رموزٍ وإيحاءات وما اختير فيه من ألوانٍ مُتناغمةٍ ومُتناسقةٍ آسرةٍ، إلى جانب نوع الخطّ والمسافات مابين الكلمات وغيرها من الجوانب التّقنية الّتي تجذب انتباه القارئ إليها، وتأسره أَسْرَاً.

ب. وصف لغلاف رواية سفر السّالكين:

حوت صورة غلاف رواية " سفر السّالكين " رجلاً أسوداً يقف على أرضٍ مُشقّقةٍ ملوّنةٍ بالبياض والسّواد قد خُطّ عليها بخطٍ صغيرٍ، وفي أعلى اليمين نجد كلمتين هما: "أسما ميدون" أمّا موقع هذا الرّجل على الأرض فهو في الوسطِ، واضعاً يده على خدّه، وأُذنه اليُسرى لا تظهر في الصورة، تحوم حوله في السّماء سبعُ حماماتٍ لونها أبيض، وبالنّسبة للون السّماء فاختير اللّون الأزرق وأسفلها غيومٌ أخذت تتشكّل.

وعلى زُرقة السّماء كُتب عنوان الرّواية بتسمية " سفر السّالكين "بلونٍ أحمرٍ داكنٍ،كُتب تحت العنوان لفظ" رواية " باللّون الأصفر، وذلك أسفل كلمة السّالكين وقد اعتلى العنوان اسم مؤلّف الرّواية "محمد مفلاح" بلونٍ أبيضٍ محتلّاً موقعاً وسطاً بين الحمامتين اللّتين اعتلتا سائر الحمامات الأخرى، وفيما يخص دار النّشر، وهي " دار الكوثر" فقد كُتبت في أسفل الواجهة بخطٍ أسودٍ داخل إطارٍ لُوّن باللّون الأصفر الدّاكن.

وبالموازاة لدار النّشر وفي أعلى السّماء الزّرقاء تظهر الشّمس بلون البياض على شاكلة لون الحمامات المُرفرفة .

ج. صورة غلاف الرواية

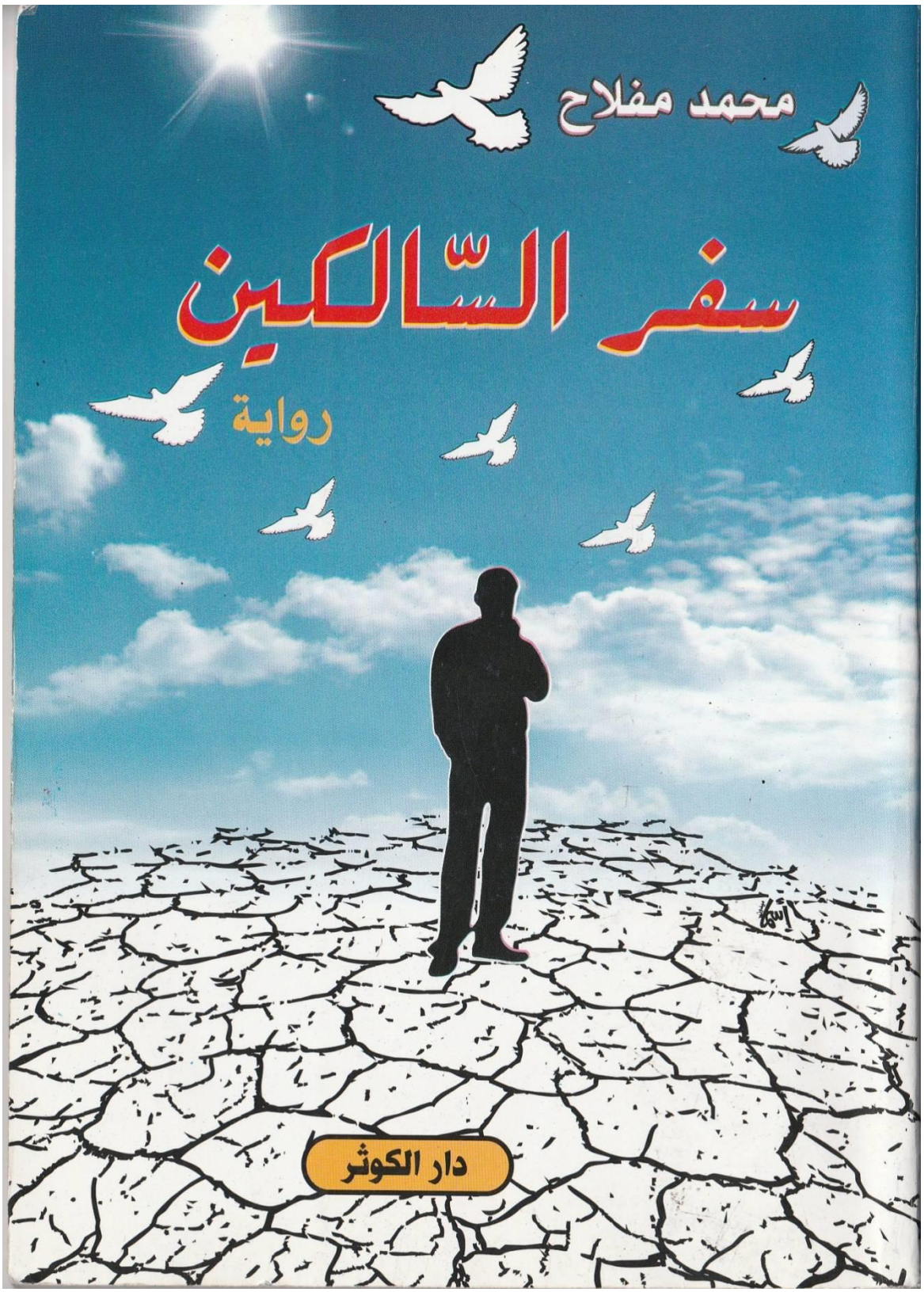

2.قراءة في العنوان:(الفاعلية الأسلوبية للعنوان):

إنّ العنوان في أيّ خطابٍ كان" بوصفه مؤشّراً إعلامياً، وتركيباً لغوياً "[6] يقود الدّارس إلى دلالة المتن وأبعاده الفنّية المُختلفة، والعنوان في معناه اللّغوي كما جاء في لسان العرب يعود إلى مادّتين هما: "عنن، وعني،فالمادّة الأُولى تعني الظّهور من قولنا: عنّ الشّيء ويعنّ عنّاً وعنوناً أي ظَهرَ،في حين تشير المادّة الثّانية إلى القصد، من جهة عنيت بالفعل كذا:إذا أردت، ومعنى كلّ كلام مقصده. ويعتمد ابن منظور قول ابن سيده: العُنوان سمة الكاتب"[7].

شكّلت دراسة العنوان أو ما يُعرف بالعتبات النّصية محوراً مهمّاً في الدّراسات النّقدية المُعاصرة؛ من حيث تطرّق النّقاد والمحلّلون لمسألة " عتبة العنوان" وأولوها اهتماماً بالغاً باعتبارها مدخلاً استكشافياً للمتن النّصي، وقد رأت البنيوية في العنوان أنّه جزءٌ لا يتجزّأ من النّص، بل عدّته الأساس والمنطلق في كلّ تحليل، يقول أمبرتو إيكو عن العُنوان:" العنوان أحد المفاتيح التّأويلية"[8].إذ يُهتدى به إلى ولوج عوالم النّص ومكنوناته الخفيّة الّتي يعمد المؤلّف إلى تشفيرها وتلغيمها ليجد القارئ نفسه أمام ترميزٍ لغويٍ يشرع في فكّ طلاسيمه وإيضاح غوامضه.

" يُعرف هذا الإجراء في التّحليل الأسلوبي البنيوي بمُصطلح التّشفيرencodage، وهي تقنية تعبيرية يسلكها المؤلّف المُبدع ويتوخّاها قصد إغفال بعض جوانب النّص لمُناورة فطنة القارئ الّذي يقوم بدوره ببذل كلّ طاقاته في فكّ أسلاك هذا التّشفير"[9]؛ ذلك أنّ الأسلوبية" ... تدرس داخل الملفوظ اللّساني تلك العناصر المستخدمة لفرض طريقة تفكير المُسنّنencodeur على مُفكّك السّنن décodeur بمعنى أنّها تدرس فعل التّواصل لا كنتاجٍ خالصٍ لسلسلةٍ لفظيةٍ ولكن باعتباره حاملاً لبصمات شخصية المُتكلّم ومُلزِماً لانتباه المُرسَل إليه"[10].

جاءت هذه الرّواية المُتناولة بالدّراسة والتّحليل في بحثنا هذا بعنوان" سفر السّالكين " وهذا العنوان كما هو واضحٌ يتركّب من كلمتين (سفر+ السّالكين)، حيث وردت كلمة " سفر " في صيغة اسم نكرة، ومن النّاحية النّحوية فموقعها الإعرابي هو " مبتدأ " لخبر محذوف تقديره على سبيل المثال لا الحصر " مُتعبٌ " أو مُحزنٌ" أمّا الكلمة الّتي أضيفت لكلمة سفر وهي " السّالكين " فجاءت اسم معرفة للدّلالة على التّخصيص وأنّ سفر هؤلاء الأشخاص ليس مُجرّد سفرٍ، فسفرهم من نوعٍ خاصٍ لا تُنتظرُ منه الرّجعة والعودة.

يُلاحظ على عنوان رواية " سفر السّالكين " أنّه ذو طابعٍ توصيفي، وعلى الرّغم من أنّ الكاتب لم يضبط العُنوان بالشّكل، فهناك من يقرأ العُنوان " سِفْر " أو" سَفَر"، فعنوان هذه الرّواية ما هو إلّا وصفٌ لمسالك المشايخ المُختلفة الّتي انتهت باستقرارهم في دار الحقّ، فالسّالكين لفظةٌ صُوفية، ارتبطت في هذه الرّواية بشخصية " الهاشمي المشلح"، وصيغة الجمع وردت للدّلالة على السّالكين الّذين دأب على التّنقّل بينهم.

وبالنّسبة للّون الّذي تلوّن به عنوان رواية " سفر السّالكين " فهو اللّون الأحمر الدّاكن، الّذي هو من الألوان الّتي تمنح الحياة والحركة، ومن ناحيةٍ أخرى يدلّ على المشقّة والشّدّة، وربما تكون هذه الدّلالة الأخيرة أقرب إلى ما يدلّ عليه لون عنوان رواية " سفر السّالكين" الّذي جاء خادماً للعنوان مُتناسقاً ومُنسجماً معه؛ من حيث توافقا في التّعبير عن مُراد الكاتب ومقصده المُتمثّل في شدّة التّوجع والتّفجّع على رحيل هؤلاء السّالكين السّبعة وذهابهم من غير رجعة، وقد صرّح كاتب الرّواية بهذا في إهدائه المُعنون بـ:" إلى الرّاحلين السّبعة" حين قال:" وداعاً يا أحبّتي.. وداعاً. تمنّيت لو تأخّر سفركم ولكنّه القضاء والقدر"[11].

يظهر لنا بعد استقصاء الأبعاد الخفية لعنوان رواية " سفر السّالكين " أنّه ذو انبصام جمالي، نتج عن توظيف الشّاعر لأسلوب انحرافي دلالي تمثّل في إضافته لكلمة " سفر" مفردة غير متوقّعة، وهي لفظة " السّالكين "، فها هنا نلفي اجتماع عُنصرين مُتناقضين ومُتعارضين هما:سفر# السّالكين، وهو ما أحدث خلخلةً في ذهن القارئ الّذي كان يتوقّع ورود ألفاظٍ مألوفةٍ تصف هذا السّفر من مثل: سفرٌ مُمتعٌ، أو سفرٌ مُريحٌ...

لكنّ الكاتب خرج عن المُعتاد وماهو متوقّع مُحدثاً بذلك في نفسية القارئ المفاجأة، وذلك من خلال " الخروج على سياق الكلام العادي أي بفضل ما فيها من الانحراف"[12]، ويكمن أثرُ المفاجأة في نفسية المُتلقي في عدم توقّعه لها، ولذا فإنّ" قيمة كل خاصّية أسلوبية تتناسب مع حدّة المُفاجأة الّتي تُحدثها تناسُباً طردياً، بحيث كلّما كانت غير مُنتظرة كان وقعها على نفس المُتقبّل أعمق"[13].

إنّ في إضافة الكاتب للفظ " السّالكين" إلى مُفردة " سفر" دلالات الانقضاء والانتهاء وعدم الرُّجوع والذّهاب دُون رجعة، فالمعنى المُحمّل في الكلمة يُخالف ما يُرتجى من السّفر(الاستمتاع،

الاكتشاف، الرّاحة، قضاء إجازة...)، ومن ثمّ العودة إلى مكان الإقامة،غير أنّ هذا السّفر من نوعٍ آخر سفرٌ بلا رجعة، إنّه سفرُ السّالكين، وإنّ ظهور هذا العُنصر اللاّمُتوقّع " السّالكين " تالياً عنصراً متوقّعاً من شأنه أن يُحدث كسراً في النّموذج اللّساني للقاعدة الّتي" تتحدّد من خلال الخُروج عليها والمبدأ يشذُّ عنه، والنّموذج يُدرك بفضل كسره، ويبدو التّوقّع مُتأخّراً من خلال وُجود غير المُتوقّع "[14]، والّذي يُشكّل لنا في النّهاية الحدث الأسلوبي، والأثر الجمالي في النّتاجات الأدبية بمُختلف أشكالها وأجناسها.

خاتمة البحث:

يحتلّ العُنوان بؤرة الاستقطاب في التّحاليل الأسلوبية الحديثة؛ نتيجةً لما يتضمّنه من أنساقٍ دلالية وفنّية ولغوية تُحيل إلى النّص بذاته وتؤسّس لكتابات مؤسلبة يحتلّ فيها العُنوان واجهة التّصور، وهذا الّذي اتّسمت به رواية سفر السّالكين لمحمد مفلاح بعد مُدارستنا لعنوانها من منظور أسلوبي بنيوي.

قائمة المصادر والمراجع:

1.ابن منظور، لسان العرب، ط:3، دار صادر، بيروت، 1994.

2.أحمد بالوافي، قراءة في غلاف الرّواية، www.diwanalarab.com22/11/2018/00:12

3.أمبرتو إيكو،آليات الكتابة السّردية،تر:سعيد بنكراد، ط:1، دار الحوار للنّشر والتّوزيع، اللاّذقية، سورية،2009.

4.خليل عبد القادر حسن قطناني، العتبات النّصية في ديوان الانتفاضة 1987 وتمثّلاتها الأسلوبية دراسة أسلوبية إحصائية، مجلّة اللغة الوظيفية، العدد:2، جامعة الشلف – الجزائر،2016.

5.صلاح فضل، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته،ط:3، النّادي الأدبي الثّقافي، جدّة – السُّعودية،1988.
6.طاطة بن قرماز، التّميُّز الأسلوبي في قصيدة قارئة الفنجان دراسة أسلوبية بنيوية، مجلّة اللغة الوظيفية، العدد:2، جامعة الشلف – الجزائر،2016.

7.عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، ط:1، الدّار العربية والكتاب، تونس، 1982.

8. محمد مفلاح، رواية سفر السّالكين، ط:1، دار الكوثر للنّشر والتّوزيع، الجزائر،2014.

9. منذر عيّاشي، الأسلوبية وتحليل الخطاب، د.ط، مركز الإنماء الحضاري، حلب – سوريا، د.ت.

10. موسى سامح ربابعة، الأسلوبية مفاهيمها وتجلّياتها، ط:1، دار الكندي للنّشر والتّوزيع، الأردن، 2003.

11. ميكائيل ريفاتر، معايير تحليل الأسلوب، تر:حميد لحمداني، ط:1، دار النّجاح الجديدة البيضاء،1993.

12. نور الدّين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب دراسة في النّقد العربي الحديث، ج:1، د.ط، دار هومة، الجزائر، د.ت.

[1]منذر عيّاشي، الأسلوبية وتحليل الخطاب،ص:31.

[2] نور الدّين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب، ص:15.

[3] عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، ص:34.

[4] منذر عيّاشي، الأسلوبية وتحليل الخطاب، ص:27.

[5] أحمد بالوافي، قراءة في غلاف الرّواية، www.diwanalarab.com22/11/2018/00:12

[6]خليل عبد القادر حسن قطناني، العتبات النّصية في ديوان الانتفاضة 1987 وتمثّلاتها الأسلوبية دراسة أسلوبية إحصائية،ص:241.

[7] ابن منظور، لسان العرب، مادتا: عنن، وعني.

[8]أمبرتو إيكو، آليات الكتابة السّردية، ص:20.

[9]طاطة بن قرماز، التّميُّز الأسلوبي في قصيدة قارئة الفنجان دراسة أسلوبية بنيوية، ص:181.

[10] ميكائيل ريفاتر، معايير تحليل الأسلوب، ص:66.

[11] محمد مفلاح، رواية سفر السّالكين، ص:05.

[12] موسى سامح ربابعة، الأسلوبية مفاهيمها وتجلّياتها، ص:41.

[13] عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، ص:86.

[14] صلاح فضل، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، ص:64.